معقل الانسانية

سرح طرفك فى عالم القرن السادس المسيحى ولا يفتنك الأبنية الشامخة المشيدة والملابس الفاخرة المزخرفة وقناطير الذهب والفضة المقنطرة ، فذلك ماتراه فى مجموع الصور القديمة ودار الاثار العتيقة ، ولكن انظر هل ترى للمروءة حياة فى ناحيه من نواحى الشرق والغرب ! أحبس نفسك واستمع ، هل تحس لها عرقاً ينبض وقلباً يخفق ؟

ترى الحياة بحرا يزدرد فيه الحوت الكبير الحوت الصغير والعالم غابة يفترس فيها الأسود والكلاب والخنازير والذئاب الغنم والخروف ، لقد انتصر الشر على الخير ، والرذيلة على الفضيلة ، والأهواء على العقل ، والبطن على الروح ، لقد تطاولت الأرض السماء سفاهة ، ونصبت للفرقدين الحبائل .

أصبحت الدنيا سوق المتاداة ، بضائعها كل ملك ووزير وغنى وفقير يباعون بيع السلع فهل ترى فى هذا العار فتى يربأ بنفسه عن أن يباع بيع السلعة وينادى : أن هذا الجو النفسيح لا يسع لطيرانى : لقد كانت الحياة لا تقع فى إمكان الخلق الا فى حياة ثانية فكيف أبيع روحى وجوهر انسانيتى بكسر من كسور هذا العالم الصغير ؟

لقد صارت للشعوب والبلاد ثم القبائل والعشائر ثم الأسر والبيوتات دوائر صغيرة ، واعتاد أصحاب الطموح والكبرياء أن يسكنوا فيها كالاقزام لا يضيقون بها ذرعاء ولا يبغون عنها بدلا ، ولا يرون فى خارجها حياة ولا يعرفون إنسانية أوسع وعالما أفسح ، لقد أصبحت الحياة تعاطيا فى البيع والشراء وتسابقا فى المكيدة والخداع ، أصبحت البشرية جثة هامدة ليس فيها حرارة روح ولوعة قلب وعمق نفس .

لقد نبتت على أديم البشرية غابة كثيفة ، وحشائش شيطانية فيها آجام يعيش فيها السباع الضارية والحشرات السامة وفيها مستنقعات فيها أنواع العلق ، وفى الغابة كل سبع مخيف ، وكل طائر جارح ، وفى المستنقعات كل علق خبيث يعلق بالانسان

ويمتص دمه ، ولكن لم يكن فى هذا العالم المزدحم بالبشر من يستحق أن يسمى بشراً ، أما الرجال فقد لجاوا إلى المغارات والاديار والكنائس واحتفظوا بدينهم وحياتهم أو مكثوا فى تيار الحياه يتلهون بالفلسفة ويتغنون بالشعر وليس فى المدنية رجل جد يكافح أعداء المدنية وينتصر للبشرية المظلومة

وإذا بهذه الجثة البشرية الهامدة يدب فيها دبيب الحياة ، وإذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار الطيور التى قدعششت عليها وباضت وفرخت وهى تحسب أنها ميتة لاحراك بها ، وإذا ببيوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك مايعبر عنه أصحاب السير والروايات فى لغتهم بارتجاج ايوان كسرى وخمود نار المجوس أما رأيت كيف تتناثر المبانى المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الارض فيضطرب بها ظهر الأرض فكيف لا تزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبى الأعظم ﷺ وطلوع فجر السعادة والعدل فى العالم .

بعث محمد بن عبد الله الهاشمى ﷺ فى مكة قلب العالم المتمدن المعمور فأرسل صيحة دويت بها الغابات وجاوبتها الجبال وذلك قوله « لا اله الا الله محمد رسول الله » كلام وجيز يحمل فى أثنائه عالم المعانى والحقائق ، ولقد شهد التاريخ بأن أسس الحياة الكاذبة المزورة ودعائم النظم المصنوعة الجائرة لم تتاثر ولم تتزلزل بشئ مثل مازلزلت فى هذه المرة بهذه الكلمة الوجيزة البسيطة وأن الذهن البشرى لم يضرب أبدا قبل هذه ضربة موجعة فتألم بها هذا الذهن البليد واستشاط غضبا وجن جنونه وقال : « أجعل الالهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب » واعتقد قادة هذه الحياة أنه أمر مبيت وخطة مدبرة ضد هذه الحياة السائدة وأنه لابد من مكافحتها ، وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على الهتكم ان هذا لشىء يراد ، لقد كانت ضربة قاضية على أفكار الحياة الخاطئة بأسرها يتأثر بها هيكل الحضارة والسياسة بجميع أركانه ،

لقد كانت ـ ولاتزال ـ هذه الكلمة تعنى أن هذه الحياة ليست أجمة برية وحشية لم يعتن بها معتن بل هى حديقة منسقة غرسها الله تعالى وتعهد تهذيبها واصلاحها ، وأن الانسان ريحانة هذه الحديقة وروح الربيع وكيف تذبل هذه الريحانة

وتدوسها الاقدام ، او تخطفها الطير ، أو تهوى بها الريح ،ولم تؤد مهمتها ولم تحل المحل اللائق بها ؟ فتقتضى فطرته أن يعبد الله وحده وتطالبه نفسه السامية أن لا يقتنع بغير رضا الله ، ويقتضى شرفه وكرامته أن يجاهد فى هذه السبيل ويبذل ما عنده من عقل ومواهب أو مال ومكاسب وليس للانسان أن يتطأمن لجسد أو روح أو جبل ونهر أو شجر وحجر أو ثروة مثر أو جاه وجيه أو سلطان ملك ،أنه لا يسمو على كل مخلوق ويتضاءل أمام خالقه ، ان العالم لم يخلق إلا ليخدمه ويطيعه ، ان الله سبحانه وتعالى قد أسجد الملائكة الذين هم حملة القوى الكونية ليعلم الانسان أن هذا الكون خاضع له متواضع ، فيأمره وينهاه ويستخدمه لمصالحه الطيبة ويسخره لمآربه العادلة . . . (وذلك قوله لا اله الا الله) .

ثم ان حياة الانسان هى السهم الوحيد الذى يملكه فاذا أصاب غرضه فيا له من سهم مصيب ! وإذا طاش وأخطأ رميته فيا رزيئة رام ضيع سهمه الوحيد ! وان حياته لوسيلة كل سعادة فى الدنيا والآخرة وأنها رأس بضاعته فأخلق به أن يكون ضنينا بهذه الحياة شديد الاحتفاظ بها وان لا يضيعها فى تجربة واختبار وفى مخاطرة وقمار ، وأن لا يخبط فيها خبط عشواء ولا يركب العمياء فانما هى حياته الوحيدة ، وما أقبح القمار فى رأس المال وما أشده خطرا ! فينبغى أن يسير موكب الحياة بدلالة خريت حاذق مجرب فان المفازة موحشة وقطاع الطريق كثير وأن يسير فى ضوء النبوة والوحى فان عالم القياس والتخمين ظلام فى ظلام ،ظلمات بعضها فوق بعض ، وأن النبوة هى النور الوحيد فى هذه الظلمات المتراكمة والمنبع الوحيد لعلم الله المحكم وأمره المبرم والنبى هو المتصل بهذا المنبع والواسطة بين الحق والخلق فى الهداية ، ما ينطق عن الهوى أن هو الا وحى يوحى ، وأن محمدا ﷺ هو آخر المتصلين بهذا المنبع وخاتم الانبياء والمرسلين الذى نسخ الله به الاديان ونصبه اماما لكل زمان ومكان ، وهو أجمعهم لصفات النبوة والكمالات البشرية ومعانى الحسن والاحسان ، وهو المثل الكامل للبشر فى كل عصر ومصر وأن دينه الذى جاء به هو رسالة كل عصر ودواء كل داء ، فلا يتم الايمان بالله ولا يمكن الوصول اليه إلا بالايمان بالرسل عامة وبمحمد ﷺ خاصة ، وذلك قوله « محمد رسول الله »

وان الانسان ليحمل فى رأسه طموحا لايشبع ،وهمة فى قلبه لاتقف ، وروحا فى جسمه لاتنى ، وقلبا فى جنبه لايطمئن فلا يروى غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق المتثاقل وان طاعته وعصيانه لأوسع من أن يستوفى ثوابها أو عقابها فى هذا العالم المحدود ، فتلزم له حياة خالدة وعالم لا يعرف الثغور والأطراف ليست هذه لحياة الا قطرة من يم إذا قورنت بالحياة الأخرة وليس هذا العالم الاشبحا إذا قوبل بالعالم الاتى ، وذلك هو الايمان بالبعث والحياة الاخرة الذى هو تمام الايمان ، وثالث الأركان فى الأديان .

لقد بلغ الذهن الانسانى فى القرن السادس المسيحى من الشلل الفكرى وبلادة الحس غاية عجز معها عن أن يتخطى الماديات والمحسوسات ومايتصل بالجسم والبطن وأن يعتقد لانسان اختصاصا بالنبوة والوحى ، لقد كانت لهم مقائيس ورثوها عن آبائهم فاذا رأوا بدعا من البشر او مثالا جديداً للانسانية قاسوه بمقائيسهم لقد كان بينهم رجال يرون أنهم المنتهى فى العظمة الانسانية فاذا نبغ فيهم عبقرى أو ظهر فيهم رسول قاسوه بهم ، لقد أفرغوا جهدهم ونثروا كنانة فكرهم فلم يروا الا أن محمدا ﷺ أما طالب ثراء ورخاء أو رائد سيادة وملك أو منتجع ترف وطور ، وإذا أنصفنا ذلك الجيل رأينا أنه لم يبعد النجعة فانه لم يجرب طموحاً فوق طموح الملوك وتطاولا أكثر من تطاول الامراء والوزراء فأرسلوا اليه عتبة بن ربيعه فكلم محمد ﷺ وكان ما قاله تمثيلا صحيحا لذهن ذلك العصر وتعبيراً صادقا عن عواطفه ونفسيته قال : « يا ابن أخى أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا . جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت انما تريد به شرفا دسوك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وأن كنت انما تريد به ملكا ملكناك علينا » . .

وما أجاب به رسول الله ﷺ كان تمثيلا صحيحا للنبوة وعرضا صادقا للموقف الأمة الوليد فأثبت انه لا يطمح الى ثراء ورخاء أو شرف وترف ، إن نفسه عالية لتسمو عن هذه الخسائس سمو السماء على الأرض إنه لاتهمه راحته الذاتيه ورفيه الشخصى انما يقلقه مستقبل البشر إنه لا يصنع لنفسه جنة شداد بل يريد أن يعيد الانسان المنفى إلى الجنة الخالدة التى أعدت له ، انه لا يسعى ليسود قبيلة

أو أمة بل يريد أن يخرج الانسان من حكم الانسان كائنا من كان ويدخله فى حكم سيده الذى هو رب السماوات والأرض .

على هذا الاساس نهضت هذه الأمة وبهذه الرسالة انتشرت فى العالم وان ما أجاب به رسل المسلمين فى مجالس رستم ، ويزدجرد يمثل تمثيلا صادقا لروحها ونزعتها قال ربعى بن عامر : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا ومن جور الاديان إلى عدل الاسلام ، ولما أمكنهم أن يؤسسوا دولة على منهاج دينهم وأساس عقيدتهم نفذوا فعلا ما كانوا يدعون اليه غيرهم ، فخرج الانسان من حكم الانسان الى حكم الله وعدله ولم يكن الحكم لحزب أو عشيرة بل كان الأمر والنهى لله يقول الخليفة الأول : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » وقال عمر لعمرو بن العاص وقد ضرب ابنه رجلا من أهل مصر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » وكان نائبهم على مملكة كبيرة كفارس يعيش فى عاصمتها القديمة كأدنى فرد من أفراد الأمة حتى يتوهم الغريب أنه فقير أو أجير فيضع الحمل على رأسه فيحمله إلى بيته ، وكان أكبر غنى منهم يعيش فى الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل فيستهين بملذات هذه الحياة الفانية ويدخر طيباته للحياة الخالدة .

كان وجود هذه الأمة فى كل ناحية من نواحى العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية وكان كل فرد من أفراد هذه الأمة يعلن للعالم وليدا وميتا ان وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة فاذا ولد وليد صرخ فى أذنه بهذه الحقيقة وإذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة ، إذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت وغاص الناس فى بحر الحياة إلى آذانهم واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية إذا بصوت يدوى « حى على الصلاة حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادى وتتجلى الحقيقة الروحية ويجرى الناس وراء هذا الصوت وقد نفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم ، وإذا ضرب الليل رواقه ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحى الصاخب فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب إذا بمعين الحياة ينصب فى وادى الموت ينبلج الصبح الصادق فى الليل الغاسق وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا فى الحياة والنشاط

والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة ، وإذا اغتر أحـد بقوته وسلطانه وزها بكثرة ملائة وأعوانه وقال بلسان المقال أو بلسان الحال « أنا ربكم الأعلى » أو « ما لكم من اله غيرى » قام رجل متواضع على منصة عالية فى كل بقعة من بقاع مملكته أو نفوذه ونادى « الله أكبر الله أكبر » فينـادى بحكم الله فى مملكته ويرغم أنف الاله الكاذب فى سلطانه .

إذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض أو أجليت منها لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل ، وظل الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام وظلت رحى الحياة تدور دورها الطبيعى ، ولكن روح ذلك المجتمع الانسانى يفارق جسده فيصير جثة هامدة لاحياة فيها ولا روح ، كذلك كان فى أسبانيا وكذلك كان فى كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدنية بلا روح وحياة بلا مبدأ وأمة بغير رسالة للعالم ؟ !

أن المؤمن وحده هو صاحب عاطفة فى هيكل العقل والمادة الذى لا يعبد فيه إلا النفس والبطن ، وهل الحياة إلا بالعاطفة ؟ وهل الدنيا إذا ماتت العاطفة وغلب العقل وحكمت المادة الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسم العقل وفك سلاسل الكون وحطم أصنام المادة وأملى على العالم ارادة الله فاذا هو مطيع خاضع وإذا هو متواضع خاشع ، وقلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ وأرغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة فى سيل المسلمين دون المدائن وكانت السنة كثيرة المدود ودجلة تقذف بالزبد فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : ألا انى قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم ؟ فقالوا جميعا : عزم الله لنا ولك على الرشـد فافعل ، فندب الناس الى العبور وأذن لهم فى الاقتحام وقال . قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه وليهزمن عدوه ولا قوة الا بالله العلى العظيم وتلاحق الناس فى دجلة وهم يتحدثون كما يتحدثون فى البر وطبقوا دجلة حتى مايرى من الشاطىء شىء (١)

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٩٨

نزل طارق بالاندلس والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب والطريق مظلم والارض كفة حابل والعدد زهيد والمدد بعيد فهزىء بأشباح المادة المخيفة وعاند العقل وأمر باحراق السفن التى ترجع به الى بلاده (١) وعزم على الفتح وأيقن بالنصر ، فهزم العدو وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين.

أراد عقبة بن نافع ان يتخذ مدينة فى افريقيه يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكانت وحلة مشتبكة بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك فدعا الله وكان مستجاب الدعـــوة ثم نادى أيتها الحيات والسباع انا أصحاب رسول الله ﷺ ارحلوا عنا فانا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل اولادها وتنتقل فرأه قبيل كثير من البربر فأسلموا (٢)

خرج محمد بن قاسم وهو ابن سبع عشرة سنة لغزو الهند ومعه حفنة من الناس والبحار حائلة وبلاد العدو واسعة الاطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة واذا بالمند من السند الى الملتان خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الاوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لايزول وعقيدة لاتتحول ، وهو فى يقينه فى عالم الاوهام كصباح الراهب فى الغابة المظلمـــة ومنارة النور فى بحر الظلمات والجزيرة التى يأوى اليها اليائسون ، والطود الذى لاتزحزحه السيول ولاتزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ولايوافقه على ذلك أحد ولا يصدقه احد فلا تخور عزيمته ولا تلين عريكته ولا يرتاب ولايتلدد والناس بين معارض ومنتقد ومطيع كاره او مخالف معتزل وهو لايحفل بذلك ويمضى كالسيف حتى يهزم يقينه الف جند من الشك وينقشع سحاب الاوهام ويظهر يقينه مثل فلق الصبح

استعمل النبى ﷺ أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام، وتوفى

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٢١

(٢) الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٢٢٤

النبي ﷺ ولم يسر الجيش وارتدت العرب اما عامة أو خاصة من كل قبيلة وظهر النفاق واشرأبت يهود والنصرانية وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم فقال الناس لابي بكر ان هؤلاء - يعنون جيش أسامة - جند المسلمين ، والعرب على ماترى فقد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر : والذي نفسي بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي ﷺ فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ولن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف فخرجوا كما امرهم وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى ابي بكر يستأذنه ان يرجع بالناس وقال : إن معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال من مع أسامة من الانصار لعمر إبن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله الافامض فابلغه عنا واطلب اليه ان يولي أمرنا اقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى ابي بكر فأخبره بما قال أسامة فقال لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما امر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ارد قضاءاً قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته ، قال عمر : فان الانصار تطلب رجلا اقدم سنا من أسامة ، فوثب ابو بكر وكان جالسا واخذ بلحية عمر ، وقال : ثكلتك امك يابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني ان أعزله ؟ !

وسار أسامة وأوقع بقبائل من تاس قضاعة التي ارتدت وغنم وعاد ، وكانت غيبته اربعين يوميا ، وقيل سبعين وكان انفاذ جيش اسامة اعظم الامور نفعا للمسلمين فان العرب قالوا لو لم يكن بهم قوة لما ارسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون ان يفعلوه (١)

ان العالم سوق لارحمة فيها ولا شفقة ولا مسامحة فيها ولا كرم ، والمؤمن

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ١٠٧ — ١٢٨

وحده هو الذى يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ويسامح مدينه وعدوه ويتنازل عن ملك واسع وعرض قريب طمعا فى الاجر ومحافظة على الكرم .

تغلب ملك كافر على دولة اسلامية فى بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة وخرج محمود شاه الخلجى صاحب مالوه من بلاده هاربا عنه الى كجرات فنهض السلطان مظفر الحليم ـ وكان الخلجى لايزال على القلعة وشرع فى المحاصرة وجد فى اسباب الفتح ودخل القلعة عنوة ووضع السيف فيهم وكان آخر امرهم انهم دخلوا مساكنهم وغلقوا الأبواب واشعلوها نارا فأحترقوا واهليهم وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفا سوى من غلق بابه واحترق وسوى اتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجى التفت اليه وهنأ بالفتح ودعا بالبركة فى ملكه وقال له بسم الله ادخلوها بسلام آمنين وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيأ الخلجى الضيافة ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشريف بالطلوع فأجابه ، فلما فرغ من الضيافة دخل به فى الابنية التى هى من آثار ابيه وجده فأعجب بها وترحم عليهم ثم جلسا فى جانب منه وشكره الخلجى وقال الحمد لله الذى اراني بهمتك ما كنت اتمناه بأعدائى ولم يبق لى الآن ارب فى شيء من الدنيا ، والسلطان اولى بالملك منى وماكان له فهو لى فأسئلك قبول ذلك وللسلطان ان يقيم به من شاء فالتفت السلطان اليه وقال له ان اول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى والثانية كانت لنصرتك وقد نلتها فالله يبارك لك فيه ويعينك عليه ، وسأله أركان دولته ان يستأثر بدولة الخلجى فالتفت الى محمود وقال له احفظ باب القلعة برجال لايدعو أحداً يدخلها بعد نزولى حتى من ينتسب الى وانصرف الى بلاده (١)

العالم بلاد لايعيش فيها الا من يحمل فى جنبه قلبا كانما قد من حجر ، لايعرف الحنان والرحمة ولا يعرف معنى الحب والايثار ، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدة والصلابة والرقة وشكيمة الاسد وحنان الام ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرأفة والعزة والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول ﷺ فلايغضب لنفسه حتى اذا تعدى

---

(١) نزهة الخواطر : للسيد عبدالحى الحسنى ج ٤

الحق لم يقم لغضبه شيء فبينما تراه فى ساحة الجهاد كانه نار فى حطب أو منجل فى حقل ليس له عاطفة ولا قلب ، اذا به تراه فى الصلاة تهمل عيناه ويغلى صدره كالمرجل وتراه يرق للضعيف ويحنو على الارملة واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل إلا أن الاولى له سجية وطبيعة والثانية له وسيلة وذريعة فهو ينشد بلسان الحال « وانى لحلو تعترينى مرارة » لايدع السماحة والكرم حتى مع العدو ولايترك التمسك بالاخلاق العالية حتى فى ساحة القتال .

هذا صلاح الدين الذى سار مثلا فى شدته وجلادته ، تستغيث به امرأة اختطف ولدها فهى تبكى بكاء الثكلى ، فيرق لها بطل حطين ويطوف بها على القبائل والمنازل حتى تعرف ابنها وتضمه الى صدرها(١)ويهدى الى قرنه واعدى عدوه فى العالم رتشرد الثلج والفواكه فى مرضه (٢)

الناس من خوف الموت فى الموت وأشد من الموت ، يعدون هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب ان يود احدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذا جاءه الموت خرج من الدنيا حزينا متلهفا على مايفارقه كارها مستبشعا لما يستقبله

أما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شديد الشوق الى جنته ، لايبالى أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت باسم الثغر جذل القلب فرحا مستبشرا كانما هو خارج من السجن او عائد الى الوطن

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة فانفذه قال عامر . فزت ورب الكعبة (٣) ولما ضرب ابن ملجم على بن أبى طالب. قال فزت ورب الكعبه (٤)

قام ابو عبيدة فى الناس فى طاعون عمواس ، فقال : ايها الناس ان هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان أباعبيدة سأل الله ان يقسم له منه حظه فطعن فمات واستخلف على الناس معاذ بن جبل فقام خطيبا بعده فقال : ايها الناس ان هذا الوجع رحمة بكم ودعوة نبيكم وموت الصالحين قبلكم وان معاذا يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم فطعن عبد الرحمن فمات ثم قام فدعا

---

(١) (٢) الفتح القسى فى الفتح القدسى : لعماد الدين الكاتب

(٣) طبقات ابن سعد (٤) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن المفضل

به لنفسه فطعن فى راحته فلقد كان يقبلها ثم يقول ما أحب ان لى بما فيك شيئاً من الدنيا (١)

وحضر بلالا الوفاة فقالت امرأته واحزناه . قال بل واطرباه، غدا نلقى الاحبة محمداً وحزبه (٢) وكذلك روى عن عمار انه كان يقول ذلك عند وفاته (٣)

المؤمن هو الذى يستطيع أن يفضل الفقر على الغنى والآخرة على الدنيا والنسيئة على النقد الحاضر والغيب على الشهود والدين على الحياة فى كل دور من أدوار التاريخ مهما بلغت المادة أوجها .

ليس لقطر من الاقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له فى أرضه ، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر فقد أنقى عليه درساً فى التوحيد الذى لا يشوبه شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع افق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى ، وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم وعالما افسح من وكره الذى يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة اصرها والاغلال التى كانت عليها وانقذها من العنصرية والجنسية والوطنية وعبادة المال والبيوتات والاشجار والاحجار والحيوانات والانهار والارواح والاجرام السماوية ، ومن الرهبنة الفاتكة بالمدنية والعزبة القاطعة للنسل وهو الذى كسر طلسم الاوهام التى مضى عليها قرون ودرج عليها أجيال اطلق العقل من أساره ورفع الحجر عن العلم ونسخ احتكار البيوتات للدين ورسم فى الذهن منزلة العمل الفردى والسعى الشخصى واستقلال كل انسان بعمله ومسئوليته ومن الذى يستطيع ان ينكر أن الفضل فى تقدم العالم وقطع مراحل المدنية والعلم انما يعود الى الاسلام ، ومن الذى يجهل اليوم أن الفضل فى تقدم اوربا وتخلصها من رق الاحبار والرهبان وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ، وفى العكوف على العلوم الطبيعية والتجربة ، والخروج من الهمجية إلى الحضارة انما يعود إلى الأندلس الاسلامية التى ظلت قرونا طوالا مشعل الثقافة ومنبع العلم ومدرسة الفن والتهذيب فى العصور المظلمة ! إن كلمات

---

(١) الكامل لابن الاثير ج ٢ ص ٢٦ (٢) الغزالى فى الاحياء عن ابن ابى الدنيا
(٣) الطبرانى

العدل والمساواة والانسانية والعالمية منتشرة ذائعة اليوم فى كل ناحية من نواحى الهند وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر فى أن الاسلام هو الذى عرف هذه الكلمات إلى أهل هذه البلاد وسعى فى رواجها وذيوعها فى بـــلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها ،

أن المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا فحسب ، وليس الاسلام عادات وتقاليد وتراثا يتوارثه ولد عن أبيه ، أنه دعوة ورسالة وحياة وعقيدة تقتضى بالطبع أن يكون نظر المسلم أوسع من الماديات والمحسوسات ومن عالم النفوس والبطون ووطنه أوسع من المنطقة الصغيرة التى ولد فيها ، وان يكون قلبه عامرا بحب كل انسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الاوطان والانساب عائقا فى سبيل حبه وعطفه وأن لا يكون سعيه منحصرا فى نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين أن يحمل للبشرية رسالة للروح والقلب والعاطفة والسياسة والاجتماع ويملك قوة أخلاقية تراقبها فى النور والظلام والوحدة والاجتماع والعجز والمقدرة عنده أساس متين من العلم وبينات ومحكمات فى المدنية ، وحياة نبى كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية فى مختلف ظروفه وأحواله ومختلف عصوره وأجياله ، وكل عصر وقطر ومفزع الانسانية فى كل ساعة عصيبة وكلمـــا حلت بها أزمة عجزت عن حلها العقول البشرية والنظم الاجتماعية والسياسية :

إذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب وهزمت الفضيلة والاخلاق ، وإذا أصبح الانسان ينحر أخاه لأجل فلس أو لاجل قرص ، وإذا اصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد الشعوب الصغيرة فى سبيل الجشع او الخيلاء وإذا صار وثن المال يعبد على قارعة الطريق ، وإذا ضحى بألوف من الناس على انصاب الجنسية والوطنية ، وإذا حال الانسان بين الانسان ورزقه ، إذا التهبت نار الشهوات وانطفأ نور القلب ، اذا نسى الانسان الموت وعكف على الحياة يعبدها إذا غلا الجماد والمعادن ورخص الانسان فى سوق العالم فصارت المدن العامرة تسوى بها الأرض وألوف من البشر يقتلون فى دقائق وثوان بالقنبلة الذرية : إذا تغلبت الامم الاوروبية على العالم وجعلته بيت المقامرين أو سوق الجزارين

وعبثت بالانسانية عبث الوليد بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالامم كالكرى ، إذا ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، هنالك يستصرخ هذا الكون المؤمن ويستغيث به وهنالك تناديه الانسانية باسم الاسلام الذى طلع كالصبح الصادق فى ظلام الليل الحالك وباسم محمد ﷺ الذى أغاث الله به الانسانية فى احتضارها وانتحارها وحفظ به مهجة الانسانية وأدال به من الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن فى جزيرة العرب التى اشرقت منها شمس الاسلام وفى حواضر البلاد العربية فى آسيا وافريقيا وفى الاقطار الاسلامية عامة صراخ الانسانية وعويلها فيهب من نومه العميق الطويل الذى مله العالم ويثب كالاسد وينقض كالصقر على اعداء الانسانية ، أو بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ، فهو معقل الانسانية ومنتهى الرجاء وأمين الله فى الارض وخليفة الأنبياء .

يدعون سيارا إذا أحمر القنا ، ولكل يوم كريهة سيار